القافية في اللغة والعروض والموسيقى

للدكتور حسين نصار

يتركب المجرد اللغوي من القافية من ثلاثة حروف: اثنان منها صحيحان، وهما القاف والفاء، والثالث احد حروف العلة، وكان هذا الحرف ألفاً، وكان ياء، وكان واوا بل كان همزة أيضاً.

وبدل تتبع صيغ هذا المجرد ومعانيه على أنه ذو ثلاثة معان أصلية، تدور حولها سائر معانيه الفرعية.

(١) فأول معنى أصلي له هو الآخر، وأرجح أنه أقدم معانيه وأشهرها وأكثرها تفرعاً.

فالقفا: مؤخر العُنُق. مذكر ومؤنث. ومنه قيل:

قَفا الجبل: وراءه وخلفه.

وقفا الأكمة: ظهرها. يقال: هو قفا الأكمة، وبقفاها: أي بظهرها.

وقفا الدهر: يقال: لا أفعله قفا الدهر: أي طول الدهر، يعني أبدا.

واستخدم العرب- جميعاً أو قبائل منهم- عدة ألفاظ من هذا المجرد بمعنى القفا، وان لم تَفْشُ فُشَوَّه، فقالوا:

القفاء: حكاه ابن جني، وعلّل به جمعهم إياه على أَقْفِية.

القَفِيّ(١).

القافية في حديث مرفوع: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم ثلاث عقد فإذا قام من الليل فتوضأ انحلَّت عقده». قال أبو عبيدة: يعني بالقافية القفا. وقيل: قافية الرأس: مؤخره - وقيل: وسطه(٢) - أراد تثقيله في النوم وإطالته فكأنه قد شدّ عليه شدادا وعقده ثلاث عقد.

القَفَنُ(٣).

---

(١) أخشى أن تكون هذه الصيغة غير صحيحة، وأن راويها خدعته لغة طيء، التي تتضح في الخبر التالي. قال في اللسان: «وفي حديث طلحة: فوضعوا اللّج على قفيّ، أي وضعوا السيف على قفاي، وهي لغة طائية يشددون ياء المتكلم» بادغامها مع الألف.

(٢) أشك في هذا المعنى.

(٣) أخشى أن تكون التالية، وضبطت في اللسان خطأ.

القَفَنُّ. أنشد الراجز في ابنه[1]:

وأنت - يا بُنَيَّ - فاعلم أنِّي
أحبُّ منك مَعْقِد الوشْحَنّ
وموضعَ الإزار والقَفَنِّ

القَفّان[2]. قال عمر بن الخطاب: «اني لأستعمل الرجل القوي، وغيره خير منه، ثم أكون على قفانه..» يعني على قفاه. قال أبو عبيد: قفان كل شيء: جماعه واستقصاء معرفته، يقول: أكون على تتبّع أمره حتى أستقصي علمه وأعرفه، والنون زائدة. قال: ولا أحسب هذه الكلمة عربية إنّما أصلها قبّان. ومنه قولهم: فلان قبّان على فلان: إذا كان بمنزلة الأمين عليه والرئيس الذي يتتبع أمره ويحاسبه، ولهذا قيل للميزان الذي يقال له القبّان: قبان. وأما الأصمعي فقال: قفان: قبان، بالباء التي بين الباء والفاء أعربت باخلاصها فاء، وقد يجوز اخلاصها باء. واذن فهذه الكلمة معرّبة وليست من المجرّد الذي أتحدَّث عنه.

ولما استقرَّ هذا المعنى اشتقوا منه صيغاً للدلالة على الأحداث المتصلة به فقالوا:

قَفَوْته، وَقَفَيْتُه، وَقَفَنْته، وتَقَفَّيْتُه، واستَقْفَيْته بالعصا: ضربت قفاه، أو جئته من خلف فضربته بها.

قفنتُ الشاةَ واقْتَنَفْتُها: ذبحتها من القفا فأبنتُ رأسها. ثم صار القَفْن الذبح مع إبانة الرأس من الخلف أو الأمام فالشاة قَفِيَّة وقَفِينة.

قَفَوْته، وَقَفَيْتُه، وقُفْته، واقْتَفَيْته، واقْتَفْتُه، واسْتَقْفَيْتُه، وتَقَفَّيْتُه: تبعته أو تبعت أثره.

قَفَّيْتُه غيري، وبغيري: أتبعته إياه.
قَفَّيْتُ على أثره بفلان: أتبعته إياه.
قَفَا اللهُ أثَرَه: عَفاه.

قَفَّى: ذهب مُوَلِّياً، وكأنه أعطاه قفاه وظهره. ومنه المُقَفِّى. في الحديث «أنا محمد، وأحمد، والمُقَفِّى، والحاشر، ونبي الرحمة، ونبي الملحمة». قال شمر: المقفى: نحو العاقب، وهو المولّي الذاهب، فكأنَّ المعنى أنه آخر الأنبياء المتّبِع لهم، فإذا قَفَّى فلا نبيّ بعده.

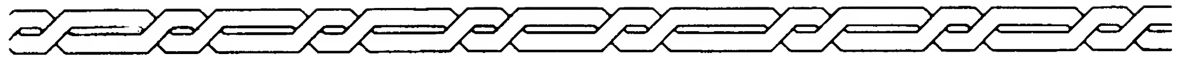
قَفَّى عليه: ذهب به، والاسم منه القِفْوة، قال: «ومأربُ قَفَّى عليه العَرِمْ» ويقال للشيخ إذا هَرِم: رُدّ على قفاه، ورُدّ قَفاً.

القَفِيّ والقَفِيَّة: الخَلَف. يقال: هذا قَفِيّ الأشياخ وقفيّتهم: إذا كان الخلف منهم، لأنه يقفو آثارهم.

(٢) المعنى الثاني الاختيار والإكرام، قالوا:

---

(١) اللسان: قفن. تلقيب القوافي ٦٣.
(٢) انظر قف وقفن وقفا من اللسان والتاج.



القِفْوَة: الصِّفوة، وما اخترت من شيء، وما تكرّم به الرجل.

القَفاوة، والقَفِيّ، والقَفِيّة: ما تُؤثر به الضيف.

القَفِيّ والقَفَيّة: المختار، والمزية تكون للإنسان على غيره، والضيف المُكْرَم بمعنى مقفوّ والحَفِيّ المكرِم.

قَفوت الرجلَ وأَقْفَيْته بالشيء: آثرته به.

أَقْفَى الرجلَ على صاحبه: فَضّله.

اقتفى الشيء، وتَقَفَّاه: اختاره.

اقتفى بالرجل، وَتَقَفَّى: احتفى.

وأعتقد أن هذا المعنى ذو صلة بالمعنى السابق، فالاختيار يأتي بعد التتبع والاستقصاء.

(٣) المعنى الثالث :العيب، قالوا:

القَفْو، والقَوْف، والتَقافي: القَذف والبهتان يرمي به الرجل صاحبه.

القِفْوَة، والقِفية: العيب، والذنب. يقال في المثل «رُبَّ سامعٍ عِذْرتي لم يسمع قِفْوتي».

القَفِيّ: القاذف.

قفا فلاناً: قَذفه، أو قَرَفه، أو رماه بأمر قبيح، أو رماه بالزنا، أو رماه بفجور صريح.

واختلف اللغويون فقال بعضهم: معناه قذفه بما ليس فيه، وقال بعضهم الآخر: قذفه بما فيه وما ليس فيه.

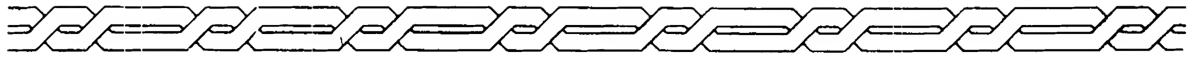
وهذا المعنى مرتبط بالمعنى الأول أيضاً، والدليل على ذلك ما حكاه اللغويون أنفسهم وفسّروه، قالوا: «قفا فلان فلاناً: أَتْبَعَه كلاماً قبيحاً» ، وإذن فالمعنى الأول لمادة القاف والفاء والمعتلّ القفاء، ومنه انتقلت إلى الدلالة على المؤخرة، ومنها انشعبت بقية المعاني حاملة دلالاتها المختلفة، ناظرة إلى جوانب معينة، سائرة في اتجاهات متباينة، ولا يشذّ عن هذا غير أشياء نوادر مثل القَفْو والقَفْوة بمعنى الغبار المتّصل بالمطر، وهو من المهموز لا المعتلّ، ومثل القُفْية بمعنى الزُّبْية، والقَفِيّة بمعنى الناحية ، ولعلّهم لحظوا فيهما شيئاً من التواري والخفاء.

في الشعر

المعنى القديم:

استعمل العرب القافية إذن مرادفة للقفا، ثم للمؤخرة عامة، ثم اشتقوا الصيغ المتعدّدة لما لحظوا فيه التتبّع، سواء كان حقيقياً أو مجازياً. ومن المجالات التي استخدموا فيها الكلمة الشعر، وعنده أقف، لأنه حقل دراستي.

استعمل العرب كلمة القافية في المجال الشعري منذ عهد بعيد. فقد وجدتها في شعر



واحد من أقدم الشعراء الباقية دواوينهم عندنا، أعني عبيد بن الأبرص الأسدي الذي قال[1]:

سل الشعراء: هل سَبَحوا كَسَبحِ
بحورَ الشعر أو غاصوا مَغاصي؟

لساني بالنَّثير، وبالقوافي
وبالأسجاع أمْهرُ في الغِياص

ثم وجدتها تشيع على ألسنة المخضرمين من أمثال الأعشى والخنساء وكعب بن زهير وحسّان بن ثابت[2]، وتنتقل منهم إلى الإسلاميين ومن بعدهم إلى يومنا هذا.

وعندما حاول اللغويون الأوائل معرفة معنى الكلمة في الاستعمالات القديمة توصلوا إلى معناها العام ثم أخفقوا في معناها الدقيق القاطع. فلو نظرنا إليها في بيت عبيد كان لنا الحق أن نعدها مقابلة للأسجاع، فنقول مع الجاحظ[3]: «القوافي: خواتم أبيات الشعر» ويدعم صحة هذا القول ما رواه الأخفش عن بعض العرب حين قال[4]:

«أنشد أحدهم:

لا يَشْتكين ألماً ما أنْقَيْن
ما دام مُخٌّ في سُلامَى أو عَيْنْ

فقلت: أين القافية؟ فقال: أنقين... وقد يجعل بعضهم القافية كلمتين.

سألت أعرابياً، وأنشد:

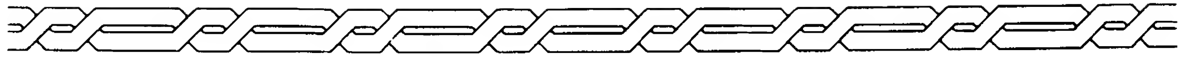
بناتَ وطّاءٍ على خَدِّ الليْلْ
لأمِّ من لم يَتَّخِذْهُنَّ الويْلْ

فقلت: أين القافية؟ فقال: خد الليل. لأنه إنما يريد الكلام الذي هو آخر البيت لا يُبالي قَلَّ أو كَثُر، بعد أن يكون آخر الكلام». وأعتقد أن هذا القول هو القول الصائب الذي يؤيد المعنى الأصيل للكلمة.

ولو نظرنا إلى بيت عبيد أيضاً كان لنا الحق أن نعد كلمة القوافي مقابلة للنثير، فنقول إنَّ الشاعر أطلقها على الشعر عامة. ويدعم صحة هذا القول تفسير المرزوقي لقول القائل[5]:

بني عَمِّنا: لا تذكروا الشعرَ بعدما
دفنتُم بصحراءِ الغُمير القوافيا

(١) ديوانه ٧٦ - ٧٧. التنوخي ٣٠ - ٣٢، ٣٤، ٥٨، ٥٩.
(٢) الأخفش ٣، ٤. الموشح ١٣، ١٤٨. ابن السراج ٩٩.
(٣) البيان ١: ١٧٩.
(٤) ١ - ٣. ما أنقين: أي ما كان نعظامهم نقي، وهو المخ. ويقال إن المخ يبقى في السلامى والعين بعد أن يذهب من جميع العظام حين تهزل الدابة. والسلامى: كل عظم مجوف من صغار العظام كعظام الأصابع. وبنات وطاء: الخيل أو الإبل، يريد أنهن يذللن الليل حتى كأنهن يصرعنه فيذللن خده.
(٥) شرح الحماسة ١: ١٢٤.



وذهب التبريزي[1] إلى أن القوافي هنا بمعنى القصائد، وذلك هو المعنى الذي قال به كثير من اللغويين في كثير من الأشعار. قال الأخفش[2]: «بعض العرب يجعل القوافي القصائد. وسمعت أعرابياً يقول: عنده قواف كثيرة. فقلت: وما القوافي؟ فقال: القصائد. وسألت آخر فصيحاً، فقال: القافية: القصيدة. وأنشد:

وقافية مثل حد السنا
ن تبقى، ويهلك من قالها

يعني القصيدة».

وقال كثيرون: القافية: البيت المفرد. قال الأخفش[3]: «قد جعل بعض العرب البيت قافية. قال حسان:

فنحكم بالقوافي من هجانا
ونضرب حين تختلط الدماء»

وقال التنوخي[4]: «قال بعضهم: القافية: البيت. واحتجَّ بقول سحيم عبد بني الحسحاس:

أشارت بمدراها، وقالت لتربها:

أعبد بني الحسحاس يزجي القوافيا

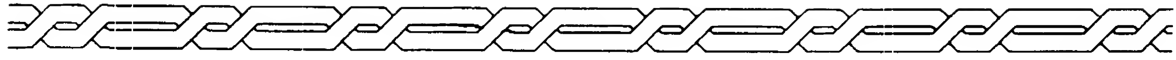
والحق أن التفرقة بين المعنيين الأخيرين في بعض المواضع متعذّرة.

وإذن نستطيع أن نقول: ان العرب استعملوا كلمة القافية في المجال الشعري وأطلقوها في أول الأمر على آخر البيت، دون أن يحددوا قدراً معيّناً منه، ثم اتسعوا بها فأطلقوها على البيت كله، ولم يقف الاتساع عند هذا النطاق بل ازداد حتى حوى القصيدة كلها.

وقد حاول بعض القدماء أن يعلّلوا كل مرحلة من مراحل هذا الاتساع، وخاصة المرحلة الأولى التي وقف عندها كل من تعرّض لتعريف القافية. قال الأخفش[5] يعلّل تسمية القافية باسمها: «إنما قيل لها قافية لأنها تقفو الكلام». وفسّر التبريزي[6] هذا القول فقال: «أي تجيء في آخره».

وقال ابن دريد[7]: «سمّيت قوافي لأن

(١) شرح الحماسة ١ : ٦٢ والكافي للتبريزي ١٤٩.
(٢) ٣. وانظر ابن السراج ٩٩، والتنوخي ٥٨.
(٣) ٣. وانظر الكافي ١٤٩، والتلقيب ٤٨.
(٤) ٥٨.
(٥) ١.
(٦) الكافي ١٤٩. وانظر التلقيب ٤٨، والتنوخي ٥٥، والارشاد ١٢٨، والنبذة ٣٠.
(٧) التنوخي ٥٧. والارشاد ١٢٨.



بعضها يتلو بعضاً أو كما قال ابن كيسان[1]: «إنما سمي الحرف قافية لأنه يقفو ما تقدمه من الحروف».

ورجح الدمنهوري القول الأول حين قال[2]: «الأول أَوْلى، لأن الوجه الثاني لا يجيء في قافية البيت المفرد ولا في قافية البيت الأول من جملة أبيات». ويبدو أنه لم يطلع على تبرير التنوخي[3] في قوله: «هذا المعنى غير موجود في القافية الأولى إلا أن يراد بتسميتها قافية أنها تصلح أن تكون في موضع ما بعدها، كما يقال: (هذا ثوب مدفىء، وطعام مشبع، وماء طهور) أي يصلح أن يكون منه ذلك».

وذهب أبو موسى الحامض[4] في تعليل تسمية القافية إلى أنها سمّيت قافية لأنها فاعلة بمعنى مفعولة، كما يقال: (عيشة راضية) بمعنى مرضية، كأن الشاعر يقفوها أي يتبعها ويطلبها. ومن الواضح أن هذا القول يحاول أن يفر من المأزق الذي وقع فيه القول السابق عليه.

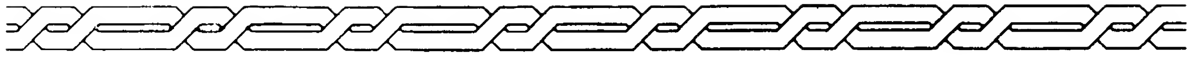
وأغرب العلل تلك التي جاء بها محسن القيصري، وحاول أن يوفّق فيها بين القولين الثاني والثالث، تخلصاً من المأزق أيضاً، قال[5]: «الأحسن أن يفصل ويقال: التي في البيت الأول بمعنى متبوعة لأنها لا تتبع وغيرها يتبعها، والتي في الأخير بمعنى تابعة لأنها تتبع غيرها وغيرها (لا) يتبعها، واللاتي فيما بين الأول والأخير فبالنسبة إلى ما قبلها بمعنى تابعة، وبالنسبة إلى ما بعدها بمعنى متبوعة».

والحق الجلي أنّنا إذا تمسكنا بالمعنى الأصيل للكلمة لم نحتج إلى أي تبرير ولم نقع في مأزق ما. فقافية البيت المفرد هي قفاه، أعني آخره. وقافية الأبيات المتتابعة في قصيدة واحدة أواخرها التي يتبع بعضها بعضاً. وفي زمن مجهول اتفقت أذواق شعراء العرب على إخضاع هذه الأواخر لوحدة، استمرّت في الاتساع وتعميق الجذور حتى شملت الشعر كله، وحوَتْ حروفاً وحركات متعددة، فتبيّنت التبعية فيها على حين كان تأخر الموضع أصل التسمية.

وعلّل ابن كيسان المرحلة الثانية من مراحل اتساع كلمة القافية، وهي التي أُطلقت فيها على البيت كله، فقال[6]: «يجوز أن يكون

---

(١) التلقيب ٤٨. وانظر ابن السراج ٩٧.
(٢) الارشاد الشافي ١٢٨.
(٣) ٥٧.
(٤) التنوخي ٥٧. العمدة ١ : ١٥٤
(٥) شرحه على أبي الجيش ١٣.
(٦) التلقيب ٤٨



سمّي قافية بالحرف الذي فيه». وأعتقد أن رأي الدكتور المختون شرح لهذا القول، قال[١]: «يجوز أن يسمى البيت كله قافية مجازاً من باب تسمية الكل باسم الجزء».

وعلّل ابن السراج المرحلة الثالثة فقال[٢]: «فانما سميت القصيدة قافية لاشتمالها على القوافي واتصالها بها».

وجمع المرزوقي علل المراحل الثلاث في قوله[٣]: «القافية: آخر البيت... وهم يسمون البيت بأسره قافية لاشتماله على القافية، والقصيدة بأبياتها قافية لاشتمالها على الأبيات المقفاة»[٤].

المعنى الاصطلاحي:

واستمرَّت كلمة القافية مستعملة بالمعاني الثلاثة، إلى أن وضع العرب علمي العروض والقوافي واتخذوها من مصطلحاتهم. فكان من المحتّم عليهم أن يحددوا معانيها تحديداً علمياً دقيقاً. أما المعنيان الثاني والثالث فتركوهما في المجال اللغوي، وأبوا عليهما أن يكونا من مصطلحاتهم.

وأما المعنى الأول - أعني آخر البيت - فقبلوه، وأخضعوه لبحثهم وتصوراتهم، فاختلفوا فيه. وقد جمع ابن القطاع أقوالهم فوجدها سبعة[٥].

وإذا تأملنا هذه الأقوال وجدنا مجموعة لغوية أو أقرب ما تكون إلى المعنى اللغوي وأولها القول الذي رواه الأخفش ورفضه في قوله[٦]: «من زعم أن النصف الآخر كله قافية قلت له: فما بالُه - إذا بُنيَ البيت كله إلا الكلمة التي هي آخره - قيل: بقيت القافية ولو قال لك شاعر: اجمع لي قوافيَ، لم تجمع له أنصافاً، وإنما تجمع له كلمات نحو غلام وسلام».

---

(١) دراسة نظرية ١٣٤.

(٢) ٩٩.

(٣) شرح ديوان الحماسة ٢ : ٦٠٧.

(٤) وتعدى الأمر الاسم، فاشتقوا منه صيغا أخرى، فقالوا: قفّيتُ الشعر تقفية: أي جعلت له قافية.

(٥) شرح التيسير ٦٨، وخلط الشيخ زكريا وجبران خليل فوتيه الأقوال اللغوية بالعروضية وأقوال أخرى غريبة، فصار مجموع الأقوال عندهما ١٢. قيل في البسط الشافي (ص ١٠٩): «قد اختلف في حدّ القافية على اثني عشر قولا، كما في شرح الشيخ زكريا على الخزرجية.
(١) فقيل: هي الكلمة الأخيرة من البيت. (٢) وقيل: مجموع الساكنين اللذين في آخر البيت وما بينهما من المتحركات، مع المتحرك الذي قبل الساكن الأول. وبعض العروضيين يجعل أول القافية الحركة التي قبل الساكن الأول. فعلى القول الأول يكون الحرف المتحرك وحركته معا من القافية، وعلى الثاني تكون الحركة منها فقط، وليس للحرف المتحرك بها دخل في القافية. (٣) انها روي البيت. (٤) انها ما يلزم الشاعر اعادته من آخر البيت من حرف وحركة. (٥) انها حرفا ختام البيت (٦) انها جزء آخر البيت (٧) انها بعض جزئه. (٨) الجزآن الأخيران. (٩) الجزء الأخير. (١٠) بعض آخر المصراع الأخير من البيت (١١) كل البيت. (١٢) كل القصيدة»

(٦) ٥.



ويبدو أنَّ القول الثاني استقاه صاحبه من الأخفش دون أن يفطن إلى حقيقة موقفه وأبعاده. إذ ذهب إلى أن القافية هي الكلمتان الأخيرتان في البيت.

ويؤدي بنا هذا إلى الأخفش، فنراه قد أبان أن العرب قد أطلقوا لفظ القافية على آخر البيت دون أن يحددوه بكلمة أو اثنتين أو ثلاث. ثم أبان موقفه العروضي فجعل القافية آخر كلمة في البيت(1)، ورفض الأقوال الأخرى مفنِّداً إياها. ولكن ابن السراج(2) أنكر دليله السابق ايراده في رفض عدّ الشطر الثاني قافية وقال: «لا حجة في هذا لأنه لما لم يمكن تبعيض الكلمة كتبت بكمالها». ولأنه ان أجاز (ينطلق) مع (يحترق) أجاز اختلاف القافية وان منعه خالف الاجماع». ورفض الدمنهوري(3) رأيه أيضاً لأنه لو صحَّ لما اتفقوا على أن القوافي تسمى المتكاوس، وهي التي توالي بين ساكنيها أربعة أحرف متحركة، وقد سلم هو نفسه أنها قافية مع تركبها من أكثر من كلمة.

ووجدنا مجموعة عروضية أو أقرب ما تكون إلى العروض، فلا تأبه إلّا للجانب الصوتي وتشتمل على ثلاثة أقوال أيضاً. وأبدأ بالقول الذي اقتصر صاحبه على آخر صوت مفرد في البيت، رآه يتكرر في أبيات القصيدة الواحدة مهما طالت، فأعلن أن القافية هي ذلك الصوت أو ذلك الحرف، الذي نعرفه باسم آخر هو «الرَّوِيّ». ولم يفرّق صاحب هذا القول بين الكلمتين. ولا زلنا ـ نحن أبناء اليوم ـ نـذهب هذا المذهب في كثير من أقوالنا حين نعمد إلى التيسير على أنفسنا وعلى من نخاطبه، لأن كلمة القافية وجدت من الشيوع ما لم تجده كلمة الروي. واختلف الكتّاب في صاحب هذا الرأي فلم ينسبه الأخفش(4)، ونسبه ابن السراج وابن رشيق(5) إلى الفراء، والتنوخي(6) وابن القطاع(7) إلى قطرب وزاد ثانيهما أن أكثر الكوفيين تابعوه. وقال ابن كيسان(8): «قال الخليل: القافية: الحرف الذي يلزمه الشاعر في آخر كل بيت حتى يفرغ من شعره» فإذا صحَّ هذا القول كان الخليل أحد الذين ينسب إليهم هذا الرأي أيضاً.

---

(1) ١. ابن السراج ٩٨. التنوخي ٤٣ و ٥٩ الكافي ١٤٩.
(2) الكافي ٩٨.
(3) الارشاد ١٢٩.
(4) ٤.
(5) القوافي ٩٨. العمدة ١ : ١٥٣.
(6) ٥٩.
(7) شرح التيسير ٦٨.
(8) التلقيب ٤٨.



وأظن أن تحريفاً ما لحق عبارة ابن كيسان، فإنَّ أحداً لم ينسب إلى الخليل ما نسبه إليه، وإنما أجمع كل الكتّاب على الرأي المعروف له بشقّيه. وأميل إلى أن الفراء هو صاحب الرأي، معتمداً على أمرين: تأليفه كتاباً في القوافي ترجح بعض الظواهر رجوع الأخفش إليه ومتابعة الكوفيين إياه.

ومهما يكن من شيء، لم يرضَ سائر العلماء عن هذا الرأي. وأقام الأخفش رفضه إياه على الأدلة الآتية[1]:

١ـ يعتمد صاحب هذا الرأي على أن الروي ألزم حروف القافية، يلتزم الشاعر علّته أو سلامته، وإليه تنسب القصيدة. ولكنه يوهم أنه لا يلزم أن يعاد سواه، وذلك غير صحيح.

٢ـ لو كانت القافية هي الروي لكان قول العجاج:

يا دارَ سلمى: يا اسْلَمِي ثم اسلمي

مع قوله: فخِنْدفُ هامةُ هذا العالم

غير معيب، لأن القافيتين ـ تبعاً لرأيه ـ متفقتان إذ كانتا ميمين، ولجاز (قال) مع (قيل) ولكن العرب إذا سمعوا مثل هذا قالوا: اختلفت القوافي، فدل هذا على أن القافية ليست الروي وحده.

٣ ـ عدد الخليل حروف القافية وحركاتها، ووهب كلا منها اسماً خاصاً. فلو كانت القافية عنده هي الروي لم يكن ليفعل ذلك.

والرأي الثاني من الآراء العروضية حكاه ابن القطاع[2] دون أن ينسبه إلى أحد ويقول: ان القافية هي الجزء العروضي الأخير من البيت مثل مفاعيلن في آخر الطويل أي التفعيلة الأخيرة.

والرأي الثالث يحتاج إلى إحاطة بعلم القوافي لمعرفته، قال أبو موسى سليمان بن محمد بن أحمد الحامض (المتوفى ٣٠٥)[3]: «القافية: ما يلزم الشاعر تكريره في كل بيت من الحروف والحركات».

وأخيراً نصل إلى رأي الخليل، الذي أقامه على أساس رياضي صوتي وصاغه ـ فيما يبدو ـ في عبارة محتملة. بدأ بالنظر إلى آخر البيت ثم عاد به ناكصاً إلى أوله، وأظن أنه قال: القافية: من آخر حرف في البيت إلى أول ساكن يليه مع ما قبله أي مجموع الحروف المتحركة التي بين الساكنين الأخيرين في البيت، ان وجدت، مع ما قبل الساكن الأول وروداً في البيت منهما.

---

(١) ٤ ـ ٧. وانظر ابن السراج ٩٨.

(٢) شرح التيسير ٦٨.

(٣) لتنوخي ٥٩. ابن السراج ٩٧. وقال ابن رشيق في العمدة ١: ١٥٣ عنه: «كلام مختصر مليح الظاهر الا انه ـ اذا تأملته ـ كلام الخليل بعينه، لا زيادة فيه ولا نقصان».



واختلف العلماء في فهم عبارة (ما قبل الساكن الأول) فذهب الأكثرون[1] إلى أنها تعني الحرف المتحرك السابق على هذا الساكن مباشرة، وذهب غيرهم[2] إلى أنها تعني الحركة التي قبله لا الحرف. وظنّ فريق ثالث[3] أنهما قولان للخليل.

ونقد ابن السراج[4] رأي الخليل بما نقد به رأي الأخفش.

وحكى فوتيه[5] أن قوماً رجّحوا قول الأخفش على قول الخليل، اعتماداً على الأدلة التي ساقها، وعلى أن العرب يقولون البيت حتى إذا لم يبق منه إلا الكلمة الأخيرة قالوا: بقيت القافية.

واستحسن التبريزي[6] قولي الخليل والأخفش معاً.

ولكن أكثر العلماء عدوا رأي الخليل أصحَّ الآراء، وأخذوا به.

د. حسين نصار
عميد كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

(١) الأخفش ٦. التبريزي ١٤٩ التنوخي ٤٣.
(٢) ابن السراج ٩٨. شرح التيسير ٦٨.
(٣) التنوخي ٥٩. وفي عبارته خطأ، فالساكن يجب أن تكون المتحرك.
(٤) ٩٨.
(٥) ١٠٠.
(٦) الكافي ١٤٩.